الأوضاع السياسية في ألمانيا ٨٨٧-١١٠٦

أ.م.د. أروى خالد علي مصطفى
الجامعة العراقية / كلية الاداب

The Political Situations in Germany 887-1106

Asst. Prof. Arwa Khalid Ali Mustafa (Ph.D)
AL-Iraqia University/ College of Arts

المستخلص

خلال القرون الوسطى ، مثلت ألمانيا الجزء الشرقي من الإمبراطورية الكارولنجية ، والتي كانت نفسها تتكون من العديد من انظمة الحكم الدوقية الذي كان ملكيًا وكذلك إقطاعيًا وراثيًا. تأسست مملكة ألمانيا بموجب معاهدة فردان الموقعة عام ٨٤٣ بعد وفاة الإمبراطور شارلمان.وتتميز الفترة موضوع البحث بخلافة الأسر الحاكمة حيث هلكت بعض السلالات الحاكمة وأفرغ العرش من الأسرة الراسخة لتتولى العرش ، كما عانت أحيانًا من أوضاع داخلية وخارجية غير مستقرة إما بسبب النزاعات الداخلية بسبب العرش أو بسبب هجمات من الخارج. و كان دور الكنيسة في دعم الملك كإرادة ملكية قضية بارزة في فترة البحث ، ودعمت الكنيسة الملك ماديًا ومعنويًا ، وأصبحت المصالح مشتركة بين البابا وملوك ألمانيا.

الكلمات المفتاحية: القرون الوسطى والمانيا النزاعات

Abstract

During the Middle Ages, Germany represented the eastern part of the Carolingian empire, that was itself consisted of many duchy governing systems. They were royal as well as feudal lord and hereditary ones. The kingdom of Germany was established according to Treaty Of Verdun signed in 843 after the death of emperor Charlemagne.

The period which is the subject of research is distinguished with the succession of the ruling families since some family dynasties were perished and the lair emptied of inveterate family to take throne , it also suffered sometimes from unstable internal and external situations either due to internal conflicts because of throne or due to outsider attacks .

The role of church in supporting the king as well as kingship were prominent issues in the period of the research, church supported the king both materially and morally and interests became common between the pope and the kings of Germany.

Keywords: Middle Ages, Germany and Conflicts

المقدمة:

كانت ألمانيا تشكل الجزء الشرقي من الإمبراطورية الكارولنجية . تألفت في القرن التاسع عشر من عدة دوقيات مستقلة وهي : فرانكونيا Franconia وسكسونيا Saxony وسوابيا Swabia وبافاريا Bavaria ودوقية لوثارنجيا Lotherangia التي استقلت عن فرنسا في القرن العاشر ، وانضمت إلى ألمانيا. وكانت كل منها تنتمي إلى قبيلة معينة،وهي : الفرانكونيون، والسكسون، والسوابيون، والبافاريون، ولكل دوقية شخصية مستقلة . كان يعتقد أن تلك الممالك ستكون، دويلات قبلية، ولكنها في الحقيقة كانت عبارة عن ولايات إقطاعية أسسها كونتات ينتسبون إلى الإمبراطورية الكارولنجية،وكانوا عبارة عن مجموعة من الإقطاعيين أكثر من كونهم حكام قبليين ، ومع هذا كان للعامل القبلي أو القومي أهمية خاصة في كل واحدة من تلك الدوقيات؛ لما له من قوة بالغة التأثير في تاريخ أوروبا العصور الوسطى [١].

وخلال حكم الأسرة الكارولنجية كانت كل قبيلة تحت زعامة محارب كبير من القادة الذين استطاعوا الحصول على لقب دوق (أي دوقات القبائل) ، ويأتي بعدهم في ترتيب السلم الاجتماعي مجموعة صغيرة من النبلاء الكبار، ثم يأتي الفلاحون الأحرار. وكان قادة المجتمع الجرماني هم دوقات القبائل وكبار النبلاء والأساقفة ومقدمي الأديرة الألمانية [٢].

كان نظام الحكم في ألمانيا ملكيا إقطاعيا وراثيا .وقد نشأت مملكة ألمانيا بموجب معاهدة فردان عام ٨٤٣ ، بعد وفاة شارلمان Charlemagne (٧٤٢-٨١٤ / ٧٦٨-٨١٤) ، فقد دب الضعف في الإمبراطورية الكارولنجية بعد تقسيمها بين أولاد شارلمان الذي بقي منهم لويس التقي Louis The Pious (٨١٤-٨٤٠) وهو بدوره قسم الإمبراطورية إلى ثلاث ممالك يحكمها أبناؤه ببين Pepin ،ولوثر

Lothaire لويس Louis وابنه شارل الأصلع Charles The Bald ، وتمرد الأبناء على أبيهم ، وترتب على ذلك صراع أدى إلى درجة الصدام المسلح [٣]. بعد هذا الصراع اجتمع الإخوة الثلاث (شارل الأصلع ولوثر الأول ولويس الألماني) في مدينة فردون واتفقوا على تقسيم الإمبراطورية الكارولنجية بينهم .فقد اخذ شارل الأصلع فرنسا ، ولوثر الأول ايطاليا ،أما لويس فحكم ألمانيا ، وبهذا تكون ألمانيا قد نشأت دولة مستقلة نتيجة تقسيم الإمبراطورية ومعاهدة فردون Treaty Of Verdun. ومع نهاية القرن التاسع ضعفت الدولة الكارولنجية فلم تعد قادرة على مواجهة الغزاة من الشرق والغرب ، بحيث شكل ذلك خطرا على الدوقات الألمانية. ففي الغـــرب كان عليها مواجهة خطر الاسكندينافيين ، أما في الشرق فكانت القبائل المجرية والسلافية تتوغل في الدولة .ولم ينج جزء من أجزاء أوروبـــا مـــن الغـــزو أو الحروب الأهلية بعد موت شارلمان [٤].

1- نهاية الأسرة الكارولنجية (887-911)

أ- أرنولف (Arnulf،887-899)

اختير ارنولف دوق بافاريا ، ملكا على ألمانيا ، بعد ان عمت الفوضى البلاد نحو ست سنوات انتهت بخلع تشارلز البدين ، وقد امتاز حكم ارنولف البالغ اثنتي عشرة سنة بالحيوية والقوة . قضى أرنولف مدة حكمه في محاربة المجريين الذين غزو ألمانيا مـــن الـــشرق،تمهيدا منه لفرض هيمنته على إيطاليا التي كانت تعمها الفوضى السياسية .وكانت رغبة ارنولف في أن يصبح إمبراطوراً هي التي دفعته للتدخل في الشؤون السياسية الايطالية[٥].

وقد ساعده ذلك، الصراع القائم بين كل من حاكم منطقـــة فريـــولي (Friuli)،وحاكم منطقـــة سبوليتو (Spoleto) على اللقب الإمبراطوري ، فدخل

روما، وتُوِّجَ ملكا على الفرنجة الشرقيين عام 896 على يد البابا فورموزس . (Formosus)ورغم ذلك فقد كان حكم أرنولف لايطاليا حكما صوريا ،اذ إنه انتهى بانسحاب القوات الألمانية بسبب المقاومة .اتسم حكم ارنولف بالاستقرار لان النبلاء الألمان كانوا قد اكتسبوا قوة من التاج الملكي الألماني لان بقاءه جاء في مصلحتهم(٦).

ب- لويس الطفل (Louis the Child)، (899-911).

بموت أرنولف انتقل العرش إلى وريثه القاصر الشرعي والوحيد الذي اشتهر باسم لويس الطفل عام 900 .كان عمره آنذاك ست سنوات ، لذلك تشكل مجلس وصاية عليه من بعض الأساقفة والأمراء ، كما اشرف المجلس على السياسة العامة في البلاد . وكان مجلس الوصاية قد ابعد أمه الملكة (اودا Oda) عن التدخل في شؤون الحكم (٧).وبذلك انتقلت المملكة إلى يد الأساقفة خصوصاً إلى أسقف ولاية "ماينز" Mainz، وأسقف ولاية أوغسبرغ Augsburg اللذين ضما إليهما بعض الأمراء ، وقد أدى ذلك إلى تقوية النزعة الإقطاعية عند الأمراء الألمان، مما ساعد على قيام الحروب والمنازعات فيما بينهم (٨).

تمتع كل من الكونت الفرانكوني كونراد – وهو أخ لأم لويس- والأسقف هاتون Hatton أسقف ماينز بسلطة مطلقة في عهد أرنولف، فكانا هما القوتين الحقيقيتين خلف عرش لويس الطفل، وتحالفا مع كثير من الجماعات داخل لوثارنجيا ؛ من اجل بسط سيطرتهما عليها بكاملها، واستطاعا طرد كونت لوثارنجيا، الذي كان يسعى إلى السيطرة عليها، ونتج عن ذلك ظهور استقرار سياسي للمملكة التي كانت تحت حكم لويس الطفل .كانت المملكة في هذه المرحلة تحتاج إلى زعيم قوي وليس طفلا لذلك ما لبثت إمبراطوريتهم أن تداعيت في عام 905، 906، وخضعت لسيطرة المجرين (٩).

وأمام الحملات المجرية،والضعف الداخلي للدولة الكارولنجية ، ظهر منافسون للويس كان لهم نفوذ وسلطة لا يستهان بها، فبدأ المجريون في مضاعفة

حملاتهم العسكرية على بافاريا وسكسونيا ولوثارنجيا، ففي عام 907 هَزمَ المجيريين البافاريون هزيمة كبيرة، وفي عام 908 عاود المجريون مهاجمتهم للمملكة الكارولنجية مجتازين حدود سكسونيا ولوثارنجيا ، إلى ألمانيا، وفي عام ٩١٠ قام الفرانكيون بالاتحاد مع المجريين عند حدود فرانكونيا وبافاريا إلا أنهم هزموا مرة أخرى؛ فتوقفوا عن القتال [١٠].

في ظل آخر ملوك الدولة الكارولنجية _ لويس الطفل _ استغل الدوقات تطور الإحداث والهجمات التي تعرضت لها المملكة ، واخذوا دورهم في التدخل في الدولة. فقد قام دوق منطقة اللورين بإعلان نفسه ملكا على فرنسا. وهذا يدل على ان النبلاء ليس لديهم رغبه في توحيد البلاد . أما الأساقفة فكانوا حريصين على إيجاد وحدة داخلية تمكن الإمبراطورية من الاستقرار تحت ظل حاكم جديد [١١].

أما النظم الاقتصادية فقد طرأت عليها بعض التحسينات خاصة فيما يتعلق بالنقل البحري، إلا أن الحروب المتتالية، والغزوات المجرية والصراعات الداخلية من قبل النبلاء ذوي النفوذ ، حالت دون تطور نظم الدولة الأخرى.انتهت الأسرة الكارولنجية بموت لويس الطفل عام 911، وبذلك انتهت في ألمانيا السلالة الكارولنجية [١٢].

ج- ألمانيا في عهد كونراد الأول (Conrad I)، (911-918)

بعد وفاة الملك لويس الطفل، الذي لم ينجب أطفالاً ، لم يبق من الأسرة الكارولنجية سوى ملك فرنسا شارل البسيط أو الساذج ، ليكون ملك على ألمانيا ، حسب قوانين الوراثة في جرمانيا . لكن الدولة كانت بحاجة إلى ملك قوي من اجل صد هجمات المجريين ، كما ان الكنيسة وجدت ان الملك القوي سوف يحد من جشع الدوقات الذين استولوا على ضياعهم زمن لويس الطفل [١٣] .

لذلك قام كبار شخصيات القصر بانتخاب كونراد دوق فرانكونيا ملكاً لألمانيا ، وهكذا أصبحت الملكية الألمانية انتخابية، يشترك في انتخاب الملك كبار الأمراء

ورؤساء أساقفة مينز وكولونيا، وفي الوقت نفسه أصبحت عملية الانتخاب مصدر خلافات لا تنقطع [١٤].

كان كونراد الأول راغبا في عرش ألمانيا ،وكان نفوذه قويا منذ حكم أرنولف ، واستمر إلى عهد لويس، إضافة إلى ذلك فهو أخ لأم لويس،وكان على علاقة قوية مع رجال الدين والكنيسة،كما كان على صلة قرابة مع أسقف منطقة ماينز، وأما الوضع السياسي الداخلي للدولة فكان مستقرا ، هذه العوامل هيأت الظروف لصالح كونراد، في الوقت الذي كان فيه الورثة الشرعيون للأسرة الكارولنجية قد انتهوا، وبذلك لم يكن باستطاعة أحد معارضة انتخاب كونراد ولكن من المعتقد أنه ليس انتخاباً بالمعنى الشوري وإنما انتخاب ديكتاتوري[١٥].

لذلك حاول كونراد التقارب بين الملكية و(رجال الدين) ؛ ليستطيع السيطرة على الأمراء . وبالرغم من أنه كان مدعوماً من قبل الأسقفية الكنيسة ، فانه لم يكن قادراً على الاحتفاظ بحكومة مركزية، وكانت فترة ولايته مملوءة بالمشاحنات والعداء المستمر وحركات تمرد غير منقطعة ، التي كان يمارسها الإقطاعيون ، كما انه لم يستطع التصدي للغزو المجري للبلاد ، فقد أغار المجريون على مدينة كوبلنز Coblens وبازل Pazel واحرقوهما . وهكذا قويت النزعة الانفصالية في أقسام ألمانيا المختلفة، وكثرت الحروب الأهلية والثورات الداخلية في ذلك العهد،فقسمت اللورين في عهده إلى أجزاء ، وواصل السوابيون حروبهم وثوراتهم حتى وفاة كونراد أما دوق بافاريا الذي نفاه كونراد فقد عاد إلى موطنه رغم إرادة كونراد الأول[١٦].

لم يكن كونراد الأول قادراً على ممارسة أي سلطة على الدوقات القبليين الذين كانوا مستقلين ، وعندما حاول بسط سيطرته على جميع أنحاء المملكة، هزم أمام حكام إمارتي بافاريا وسوابيا، واعترف لأمرائها بأنهم مساوون له[١٧] . أدى فشل كونراد السياسي إلى أمرين أولهما : أن كونراد لم يستطع الوقوف في وجه المؤسسة الإقطاعية التي أنشأها الدوقات، والتي تأصلت وتجذرت إلى الحد الذي لم يستطع كونراد أن يواجهها، والأمر الثاني : أن الوقت لم يكن يتيح للكنيسة التفرد

بأمور السياسة والحكم، خاصة أن الكنيسة كانت تسعى إلى الاستقلالية بكل ما لديها من قوة، إلا أن سعيها انهار فجأة؛ بموت كونراد [١٨].

توفي كونراد الأول في عام 919، وقبل وفاته أوصى بان يتولى عرش ألمانيا (هنري) ،وهو من الأسرة السكسونية ،خلفا له ،لأنه اعتقد انه أصلح من ينتشل البلاد من الهوة التي تردت فيها [١٩].

2- **حكم الأسرة السكسونية (919-1024).**

أ- **هنري الأول (الصياد)** [٢٠]، (Henry 1 The Fowler 919-936).

بعد وفاة كونراد اجتمع جميع أمراء ألمانيا ما عدا بيركهارد (بريتشارد) Bretchard أمير سوابيا،وأرنولف أمير بافاريا، في منطقة فرينزلار Vrinzlar، حيث اختاروا بالانتخاب هنري ملكاً عليهم؛ باعتباره الدوق الأكبر للأسرة السكسونية في عام 919 بأغلبية الأصوات [٢١]،وكان غالبية المنتخبين من السكسونيين والنبلاء الفرانكونيين . لقد حصل هنري على العرش؛ نتيجة لتوصية كونراد الأول وقبول النبلاء عبر ما يسمى بعملية الانتخاب ، لذا فقد أصبح العرش الألماني موروثاً شرعياً لهنري [٢٢].

قيض لأسره هنري، والتي عرفت فيما بعد باسم أسرة أوتوا"Ottonians"، أن تحكم ألمانيا على مدى أكثر من قرن من الزمان، ومن ثم فإن بداية حكمه تعتبر دائماً هي البداية الحقيقية لتشكيل المملكة الألمانية. وبحكم هنري تحولت الملكية إلى السكسونيين ، لكنة أبقى على القوانين الفرانكونية حتى شملت ملابس الملك والتقاليد التي اتبعها أسلافه . كان انتقال الملكية إلى الأسرة السكسونية نقطة تحولٍ في تاريخ الأمة الألمانية وتحول ألمانيا إلى ملكية ألمانية.كما أن السكسون كانوا أكثر العناصر الألمانية تمسكاً بتراثهم الجرماني القديم وأقلهم تأثراً بتقاليد الكارولنجيين ، وهكذا نهضت الدولة الألمانية المستقلة [٢٣].

ولد هنري عام 876، كان والده أوتو(Otto) دوق تورنجه . ثم أصبح دوق سكسونيا عام 888، ثم خلف هنري أباه على هذه الدوقية عام 912 .كان

شخصية حيوية ونشطة ، وبجانب صفاته الشخصية تلك كان فطناً وسياسياً نافذاً . كانت ألمانيا عندما تولي هنري حكم الدولة عبارة عن اتحاد بين الدوقيات الكبرى، مع احتفاظ الزعيم أو الدوق الذي يحكم أقوى تلك الدوقيات بلقب الملكية، ومن هنا كانت مهمة هنري هي أن يحول السيادة الاسمية إلى سلطة فعلية (٢٤).

بعد تسلم هنري الحكم واجه مشكلتين ،الأولى كانت تتعلق بالدوقات ، والثانية هي علاقته مع الكنيسة . كان هنري يريد تحديد علاقة الدوقات مع الدولة ، وذلك بالحد من سيطرتهم ، وطبيعة علاقتهم مع الكنيسة ،وقد استطاع هنري ان يحصل على قوة كافية لمواجهة الدوقات عند تمكنه من نزع الاعتراف بلقبه الملكي من منافسيه الإقطاعيين أمثال : بريتشارد وأرنولف، إضافة إلى ان جيلبيرت (Gilbert) حاكم منطقة اللورين Lorraine كان قد أعلن ولاءه وإخلاصه لفرنسا من قبل. لقد أجبر هنري أولئك جميعهم على الاعتراف بشرعية ملوكيته، ولكن على حساب الاحتفاظ بحكم ذاتي محلي مستقل لكل منهم (٢٥).

كانت سوابيا أولى المشاكل التي كان على هنري ان يحلها؛ وذلك بسبب ارتباطها مع براغندي Bragnde وإيطاليا اللتين كانتا تهددان عرش الملك ووحدة المملكة وشعبها، قام هنري باستعادة الكثير من الأراضي الدوقية المقتطعة من سوابيا،وخاصة بعد اغتيال حاكمها بيركهارد على يد الايطاليين؛ فقام بتعيين أحد أقاربه دوقاً عليها وزوجه أرملة بيركهارد، وبذلك ضمن موالاته للتاج الملكي (٢٦).

أما أرنولف حاكم بافاريا الذي كان يسعى في اخذ التاج الألماني لنفسه بمساندة الشعب البافاري، والذي كان يعرف بـ(السيئ)، فقد قام بالتحالف مع المجريين ضد هنري، ولكن هنري استطاع إنهاء ذلك التحالف، فتبع سياسة سلمية مع أرنولف، وزوج ابنه من أخت أرنولوف عام 921. ولتقوية دعائم مملكته؛ منح الدوقيات لأقاربه؛ لضمان ولائهم له ، ثم احتفظ بالباقي لنفسه، وبذلك عمل على توحيد جميع الأسر الألمانية القوية تحت إمرة أسرة واحد، وللحد من نفوذ

أولئك الدوقات؛ حرمهم من كل سيطرة على الكونتات أو الحكام المحليين، وجعل أولئك الموظفين مسئولين أمام الملك مباشرة (٢٧).

كانت سياسية هنري التي اتبعها تجاه الدوقات هو إحساسه بخطرها ، ومعرفته بقوتها في الحياة السياسية والاجتماعية ، وعدم القدرة على إبعادها ، لكنه استطاع وضع حدود معينة لقوة هؤلاء الدوقات ، الأمر الذي يؤمن استقرار العرش والتاج الألماني . وأما في فرنسا، فقد استنجد ملك فرنسا تشارلز Charles ودوق باريس Paris روبرت Robert بهنري الأول ؛ لتخليصهم من رودولف Rudolf دوق براغندي، لكنه في البداية رفض لعدائه الشديد لروبرت، لكن بعد هزيمة روبرت ومقتله في معركة مع رودولف ، قام هنري الأول بطرد رودولف من فرنسا وأصبح تشارلز حليفا لهنري (٢٨).

أما سياسة هنري الأول تجاه الكنيسة فكانت تختلف كثيرا عن سياسته مع الدوقات ،فلم يجعل نفسه تابعاً للكنيسة عندما رفض ان يتوج من قبل الأساقفة ، لكنه عمل على تواصل اتحاده مع رجال الدين والكنيسة ، وكانت صيغة الاتحاد بينه وبين الكنيسة يغلب عليها طابع التحكم ، ولضمان تبعية الأسقفية له تبعية ملزمة ومباشرة، منحهم مقتطعات وهبات تخدم المصالح الكنسية دون أن يتجاوز الحد المطلوب من السلطة الحاكمة ،وأعاد لهم أراضيهم التي أخذت منهم خلال حكم لويس الطفل . وقام ببناء هيكلية إدارية للكنيسة في جميع الدوقيات ليس للدوقات أي سيطرة عليها ، لأنّ الكنيسة كانت جزءاً مهماً في الدولة، فقد زودت العرش بحاشية مخلصة، مع السماح للسلطة الملكية بالوصاية على انتخابات المجلس الأسقفي؛ وبذلك ضمن هنري ولاء الأساقفة للتاج الملكي (٢٩).

تعرضت المملكة خلال حكم هنري الأول إلى غارات المجريين ، الذين أعاودوا غاراتهم عام ٩٢٤ ، مع انها لم تتوقف في السنوات الأولى من حكم هنري الأول، لكنها كثفت هجومها على الحدود المتاخمة للمملكة؛ ففي عام 926 قام المجريون بنهب منطقة إس تي غول S–T–Gul ،لكن القرويين اجبروهم على التراجع . وتكررت تلك الأحداث في أكثر من مكان ، إلى أن تم أسر الملك المجري "زولدان" Zuldan عن طريق الصدفة أثناء غارة شنها الألمان. لكن هنري الأول

أطلق سراح الملك الأسير، ووافق على دفع تعويضات سنوية له شريطة أن يدخل في اتفاقية سلام معه لمدة تسع سنوات ،لان سكسونيا كانت قد تلقت وحدها عملية الغزو، دون أن تلقى مساعدة من سوابيا أو بافاريا، وبذلك يستطيع أن يجنب بلاده خطرهم لاستغلال الوقت للقيام بإصلاحات [٣٠].

لم تتغير سياسة هنري الأول السلمية مع منافسيه طيلة فترة حكمه ،فقام بتزويج ابنته من دوق لوثرينجيا ومنحة دوقية ، وكان دوق لوثرينجيا قد تمرد عليه، وسجنه في زوبلخ. وعم السلام في تلك الفترة جميع أنحاء الإمبراطورية وسنحت لهنري الفرصة لتتبع الشؤون الاقتصادية في الإمبراطورية وبهذا شكلت سكسونيا في هذه الفترة ، جزءا كبيرا من التاريخ الألماني : الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، وبرزت فيها المؤسسة الإقطاعية بشكل كبير وواضح [٣١] .

كان من أهم إنجازات هنري هي بناء مؤسسة دفاعية متينة لحماية سكان ألمانيا من الهجمات الخارجية وكانت الحصون التي أقامها من الموانع القوية التي حافظت على بقاء ألمانيا . لان هذه الحصون كانت والوسيلة الأنسب من وجهة نظر هنري لتفادي الهجمات المجرية المفاجئة . وقد كانت إدارة تلك الحاميات تقع مباشرة تحت سيطرته؛ لضمان تأمينها ولم تكن تلك المواقع العسكرية معدة فقط للحماية ضد الهجمات بل إنها كانت أيضاً مواقع تدريب عسكري[٣٢] .

أما على الصعيد العسكري فقد استطاع هنري أن يهزم المجريين هزيمة ساحقة عام 933 . في معركة سيلبيرغ Silberg. وامتد نشاط هنري العسكري إلى بوهيميا، مما أدى إلى ان تصبح تحت سيطرته السياسية ، التي شجعت على تغلغل المسيحية في سائر البلاد السلافية الأخرى. وآخر حادث عسكري في حكم هنري كان حربه مع الدنماركيين . وإجبارهم على دفع الضريبة، والعمل على تنصيرهم بتوجيه كنيسة هامبورغ . توفي هنري الأول في 936 بعد أن حكم ألمانيا أكثر من عقدين من الزمان[٣٣] .

ب- أوتو الأول (Otto I 936-973)

انتخب أوتو الأول خليفة لوالده هنري اذ كان يحظى باحترام شعبهالنابع من احترامهم لوالده الذي حقق إنجازات تاريخية مهمة .ترك هنري لابنه أوتو الأول دولة ذات دعائم قوية عزز فيها موقفة عن طريق تأمين موافقة النبلاء على توليه العرش قبل موت هنري . ولد أوتو في عام 912 في سكسونيا إحدى الدوقيات الألمانية الخمسة، ثم تزوج من ابنة ملك انكلترا. بعد تسلم أوتو العرش واجه العديد من التمردات الداخلية، والضغوطات الخارجية، التي اضطُر إلى مواجهتها(٣٤).

ففي الداخل قام ابن هنري من زوجته الأولى اميرة هاتبيرغ Hatberhg ، والذي كان يدعى ثانكمار Thankmar بالادعاء بأحقيته بخلافة والده على الحكم، حيث طلق هنري زوجته الأولى –أم ثانكمار- وصادر إرثها وارث وولدها ووضعها تحت سيادة الدولة،وتزوج ماتيلدا Matilda التي أنجبت له ثلاثة أبناء هم أوتو، وهنري، وبرونو Bruno، ثم رغم أن هنري سمى أكبرهم ولياً للعهد، فان ماتيلدا كانت ترغب في تولية ابنها هنري العرش بعد وفاة والده (٣٥).

ثار ثانكمار ضد اوتو يؤيده السكسونيون و إيبرهارد Eberhard دوق فرانكونيا الذي كان هو وأخوه الملك كونراد قد ساهما من قبل في نقل العرش إلى الإمبراطور السكسوني هنري، لكن عندما مات هنري حاول ايبرهارد تثبيت مزاعمه على العرش متأثرا بكرهه الشديد لأوتو، كما تعاطف مع ثانكمار، بيرنهارد حفيد لويس التقي . وشارك أيضاً بالتآمر على أوتو كل من دوق غيسيلبيرت Gislbert دوق اللورين، وأخو أوتو الذي يدعى هنري (٣٦).

تحرك أوتو تجاه مناطق المتمردين وحاصر ثانكمار في منطقة أريزبيرغ Arizberg وذبحه في مذبح الكنيسة، فقام أيبرهارد دوق فرانكونيا بإخضاع نفسه لاوتو . كان تصرف أوتو الوحشي مع أخيه ثانكمار، دليلاً واضحاً على مدى

أنانيتـــه، وحبـــه لنفسه،ورغبته في القضاء على أي شيء في سبيل الحصول على السلطة، وتملك زمام الأمور .وهذا دليل على صلابته وعجرفته ، وقد لجأ إلى أساليب الخداع والمكر لتحقيق انجازاته ونجاحاته لبناء إمبراطورية واسعة وقوية(٣٧).

وهنا ظهر الفرق واضحاً بين أسلوبي هنري الأب وولده أوتو في القضاء علـــى التمـــردات الداخلية، فنرى كيف استطاع هنري أن يكسب كل المتنافسين له والمتمردين بالطرق السلمية، وظهر ذلك مع كل من أرنولوف دوق بافاريا، ودوق لوثرنجيا، الذي انتهى الأمر بمصاهرتهما(٣٨).

قام مـــرة أخرى هنري الابن بتوسيع نطاق علاقاته من خلال كسب أبناء أرنولف حاكم بافاريا، وعـــودة إيبرهارد دوق فرانكونيا للتحالف معهم، إضافة إلى غيسيلبيرت دوق اللـــورين . لكـــن أوتـــو استطاع من خلال معركة مميتة أن ينتصر عليهم، بعد مقتل إيبرهارد، وغرق غيـــسيلبيرت فـــي نهر الراين، أما هنري ففر إلى فرنسا وأخمدت نيران التمرد (٣٩).

قام أوتو بعدها بوضع فرانكونيا تحت حكمة مباشرة وأصبحت قاعدة مركزية؛ لدعم قوة المملكة السكسونية، كما تم وضع أجزاء من بافاريا أيـــضاً تحـــت حكمه بصورة مباشر، وقد كانت لذلك دوافع سياسية وجغرافية إذ كان التحكم المباشـــر فـــي فرانكونيـــا يضيق الخناق على كل دوقية في محاولات أخرى للانفصال مستقبلا، فموقعها الجغرافي كان بمثابة موقع سياسي يسهل من خلاله الوصول لأي حركة تمرد وضربها ومنعها من التملص أو الانقلاب ، حيث لا أمل لبافاريا وسوابيا الواقعتين بـــين الحـــدود الإيطاليـــة بالتقـــدم نحـــو سكسونيا أو الهروب منها (٤٠).

بعد ان قام اوتو بإخضاع فرانكيا وبافاريا عم السلام لفترة وجيزة جميع إرجاء المنطقة، وفي عام 944م منحت ولاية لوثرنجيا إلى كونراد الأحمر بـــن

غيـــسيلبيرت وكان ذلك بادرة حسن نية ،ليعم السلام جميع الأطراف المتناحرة، ثم زوجه ابنته. ضم أوتو الجانب الفرانكوني إلى عائلته، واتبع أوتو سياسة الزواج والمصاهرة؛ لتأمين ولاء فرانكونيا وسوابيا وبافاريا عن طريق الارتباط العائلي مع ولاة تلك المقاطعات هنا بدأت سياسة أوتو تأخذ منحى آخر مختلفاً عن سياسته منذ بداية حكمه، متبعاً بـــذلك مـــا سار عليه والده هنري من سياسة الزواج والمصاهرة لكسب الدوقات، وإخضاعهم لسيطرته(٤١).

حاول أوتو إلغاء نظام الدوقيات، لكنه لم يستطع ذلك، لما ترتبط به الدوقيات من تقاليـــد تاريخية قوية، ولأهميتها في الدفاع عن المملكة، فقد جعـــل تلـــك الدوقيات وراثية، عن طريق عزل الدوقات وإحلال رجال من أسرته مكانهم، فمنح دوقية بافاريا لأخيه هنري، وجعل سوابيا لابنه الأكبر ليودولف . أما لوثرنجيا فقـــد قـــام بهـــا أوتـــو بتجربة جديدة، فقد عهد بها إلى أخيه الأصغر برونو الذي كان من رجال الدين ورئـــيس أساقفة كلوني . وجاء منح أخيه رجل الدين هذه الدوقية إلى عدة أسباب وهي : رغبته في عدم انفصال الكنيسة عن الدولة، وان أخاه سوف يجمع بين السلطة الدينية والسلطة الملكية التي تجعله قادراً على امتلاك القوة والعدالة؛ بذلك غلب الطـــابع الإقطاعي على الكنيسة حتى صار من غير المستغرب أن يصبح أحد الأساقفة دوقاً (٤٢).

أما السبب الآخر ، فكان من منطلق ان رجل الدين لا يتزوج ، وبذلك لن تكون الدوقيات ممتلكات وراثية ، وهذا يجعله لا يبذل أي جهد في إلغاء حق وراثة الحكم الذي يؤدي إلى عداء الدوقات والكونتات له ؛ ويؤدي من ثم إلى أضعف سلطات الكونتات. إضافة إلى ذلك زوج كونراد الأحمر ابنة اوتو الذي منحه الدوقية سابقا ، كان قد تمرد عليه مما دفع اوتو لأخذ لوثرنجيا منه وإعطائها لأخيه برونو (٤٣).

اتجه اوتو بعد إضعاف سلطة الدوقات ، إلى إضعاف سلطة الكنيسة للسيطرة عليها لتكون عونا له في التغلب على قوة الدوقات ، فوضع الكنيسة تحت سيطرته باستخدام مواردها ورجالها فـــي سبيل إرساء الأسس التنظيمية للسلطة الملكية في ألمانيا. ولم تكن هناك طريقة أخرى كان يمكـــن للملكية الألمانية بواسطتها أن

تحصل على الثروة والدعم العسكري والإداري اللذين تحتاج إليهما لكي تتمكن من تلك السيطرة . ولم يكن رجال الدين الألمان أقل من الملك رغبة في التعاون معه؛ وذلك لحمايتهم من تسلط النبلاء ، وتقديم الهبات السخية على المؤسسات الكنسية، فضلاً عن إتاحة الفرصة لرجال الكنيسة للخدمة في مجلسه الاستشاري وتولي وظائف الوزراء الملكيين (٤٤).

ذلك الأمر جعل الكنيسة تدفع الثمن غالياً لأن تحول الأساقفة إلى أمراء إقطاعيين يتمتعون بسلطات مدنية واسعة؛ جعلهم خاضعين للملك خضوعاً مباشراً، كما جعل تقليدهم مهام مناصبهم الدينية من حق الملك وحده، وهكذا أخذ أوتو الأول يتحكم في تعيين الأساقفة ثم عزلهم؛ مما أضر ببنية الكنيسة ونظامها (٤٥).

كان أوتو على عكس ما كان عليه أبوه؛ كان هنري الأول يخشى الأساقفة الأقوياء ، كما رفض أن يتم تتويجه على يد أي من رجال الكنيسة . ولكن يبدو أن أوتو استغل الدين والكنيسة لصالح تحقيق أطماعه ومساعيه،ولم يكن تعامله مع الكنيسة إلا لجعلها أداة مساعدة ؛ لان رجال الكنيسة يتحكمون بثروات طائلة .أما الملك فلم تكن لديه أرض أو أملاك أو جيش أو عوائد تخصه بشكل مباشر، ولو قام كبار رجال الدولة بوقف دعمهم للملك فسوف يصبح عاجزاً عن إدارة ملكه(٤٦).وكما نجح أوتو في القضاء على التمردات الداخلية، وحقق نفس النجاح في سياسته الخارجية وحروبه .أراد توسيع سلطته السياسية في جميع المناطق ،فقد وقف ضد النفوذ الفرنسي في أي مكان من الغرب، وضد السياسة السلافية من الشرق، وحتى ضد المملكة الإيطالية المتأرجحة في الجنوب(٤٧).

انقسمت فرنسا إلى قسمين متناحرين؛ بسبب المعارك التي دارت بين لويس وهوجو كونت باريس ،وكان كلا المتنافسين زوجين لأختي أوتو، أما هوجو فقد تلقى دعماً نورمانياً لمواجهة لويس؛ من أجل نيل التاج الملكي، وبسبب أسر لويس من قبل النورمان ،قام اوتو بغزو فرنسا عام 974 ولكنه لم ينجح في هجماته ضد باريس أو روين عاصمة نورماني في تلك الفترة. وعمّ سلام شامل

بين أوتو والنورمان بوساطة كونراد ملك فرنكونيا . ثم لعب أوتو دور الوسيط بين المتنافسين على عرش فرنسا فاعتلى لوثر بن لـــويس عـــرش فرنسا بعد موت أبيه، أما ابن هوجو وهو ابن أخت أوتو فقد تولى العرش بعد انقراض السلالة الكارولنجية الحاكمة في فرنسا .أما في الشرق فاستطاع أوتو إخضاع التمرد البوهيمي (السلاف) وأجبر بوهيميـــا كلها على العودة إلى الهيمنة الألمانية .وقام ببناء الأسقفيات في كل من هافيلبيرغ وبراندنبيرغ؛ لتدعيم ملكه في المنطقـــة التي احتلها من السلافيين ، ثم للعمل على تحويلهم إلى الدين المسيحي [٤٨].

اشتبك أوتو مع الدنماركيين بمعركة كبير، واستطاع هزيمتهم ، ثم أجبرهم على حلف يمين الولاء المسيحي له . وقـــام بإعـــادة تشكيل الحـــدود الدنماركية القديمة وبنى حدوداً جديدة . أما المجريون فقاموا بغزو ألمانيا مرات عديدة في عهد أوتو، كانت أولها عام 937 حين قاموا بغزو سكسونيا ثم بافاريا اللتين تعرضتا لهجمات مجرية عديدة . وفي عام 955 شن المجريون غارة كبيرة أوصلتهم إلى أوغسبرغ، إلا أن أوتو استطاع حشد قوات كبيرة من السكـــسون والفرانكـــون إضافة إلى مقاتلين من سوابيا وبافاريا، وقوات من بوهيميا،ولقي المجريين في معركة ليشفيلد lechfeld حيث دمرت فيها القوات المجرية واندحرت . وبذا فقد كان عام 955 آخر الغارات المجرية على الغرب،وبعد هزيمة المجريين في معركة ليخفلد انسحبت القوات المجرية إلى سهول الدانوب،حيث استوطنوا هناك وبنوا ما عرف بمملكة هنغاريا [٤٩].وفي عهد الملك اس تي ستيفت S.T.Stephen اعتنق المجريون المسيحية وأصبحوا دولة تابعة للبابوية، وأصبحوا يدورون فـــي فلـــك الـــسياسة الألمانية .كما حرر ذلك الانتصار شمال إيطاليا من المعتدين عليها والمتحرشين بسيادتها ، وبعد ذلك الانتصار أصبح أوتو الأول بطل الغرب الأوربي، كما بدا في عيون النبلاء الالمان أنـــه قـــد جعل من زعمه بأنه خليفة شارلمان ، وفي الميدان الذي شهد انتصاره علـــى المجـــريين رفعه كبار السادة الإقطاعيين على دروعهم على الطريقة الجرمانية وأعلنوه إمبراطوراً [٥٠].

توحيد ايطاليا وتتويج اوتو إمبراطورا

شعر أوتو أن الكنيسة الألمانية ليست وحدة قائمة بنفسها وإنما ترتبط بالبابوية في روما وتخضع لهيمنتها. وبذلك وجد أوتو أنه إذا أراد أن يسيطر على الكنيسة الألمانية للسيطرة على ألمانيا؛ فإنه يجب أن يُخضع البابا أو يكسبه إلى جانبه، لذلك وجد من الضروري التدخل في شؤون إيطاليا؛ للسيطرة على البابوية [٥١].

هيأت الظروف الفرصة المناسبة أمام اوتو لتحقيق غرضه، فقد طلبت أرملة الملك لوثر (أدهيلد) Adhild المساعدة منه،عندما انتزع بيريغر الثاني Berger II دوق بافاريا المملكة الايطالية منها ، حيث سجنها في حصن بحيرة كومو Como، لكنها استطاعت الفرار من السجن واتجهت إلى قلعة كانوسك Canossa للتخفي هناك[٥٢] .

قام أوتو بتلبية نداء ادهيلدا ،وشن أول حملة على إيطاليا في عام ٩٥١، فعبر جبال الألب واتجه إلى قلعة كانوسا وحرر ادهيلدا ، ومن ثم تزوجها ، وأجبر بيرينغر على الاعتراف بالتبعية له . وعندما طلب أوتو تتويجه إمبراطوراً على روما من البابا،رفض البابا ذلك .أجبرت حركة التمرد في ألمانيا أوتو على العودة تاركا إيطاليا ومهمته لم تكتمل بعد . فقد ثار ابنه ليودولف عليه في سوابيا، وثار كونراد في اللورين الأعلى كما ثار فردريك Frederick رئيس أساقفة ماينز [٥٣].

كان سبب التمرد هو خلاف وقع بين ليودولف وعمه هنري على الحدود الواقعة بين مناطق حكمهما، وتدخل لفض الخلاف الملك أوتو فكان في صف أخيه هنري، فغضب لذلك ليودولوف، واعتقد أن ذلك التحريض من زوجة أبيه ادهيلدا، ومن ثم انضم إلى ليودولوف زوج أخته كونراد الأحمر بتأثير من زوجته التي كانت أدهيلد تكرهها بشدة . لكن أوتو استطاع القضاء على أولئك المتمردين؛ بسبب كثرة تنافسهم[٥٤] .

ظل أوتو يحلم بإمبراطورية لنفسه، حتى جاءته الفرصة مرة ثانية، في عام 959 ،عندما وقع صدام بين البابا يوحنا الثاني عشر، وبين برنغار ملك فريولي ألد

أعداء أوتو ، وكان البابا يوحنا الثاني عشر قد جمع في شخصه بين السيادتين الدينية والدنيوية في روما . فاستعان البابا يوحنا باوتو. وفي عام 961 قام باجتياز جبال الألب فخلع برينغر ثم دخل روما لأول مرة في حياته وهناك أجبر البابا يوحنا على تقليده تاج الإمبراطورية الرومانية.وفرض أوتو على الايطاليين قانوناً يمنع انتخاب البابا دون الرجوع إلى الإمبراطور، وبمجرد مغادرته قام البابا بالتراجع عن اليمين الذي أخذه على عاتقه فعاد أوتو إلى إيطاليا عام 963 ثم قام بخلع البابا يوحنا وانتخاب بابا جديد . فما كان من الرومان إلا أن قاموا بانتخاب بابا جديد وهو بندكت الرابع Benedict IV دون الرجوع إلى أوتو؛ فقام أوتو بنفيه وبتعيين ليو الثامن leo VIII بدلا منه [٥٥].

اتخذت الإمبراطورية الرومانية شكلاً آخر عندما ولي عليها أوتو الأول، حيث غير اسمها لتصبح (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) للشعب الألماني، وقد وجدت أثناء تلك الفترة مؤسسة جديدة تحت قيادة أوتو . واستبدل دوقات إيطاليا بدوقات معظمهم ألماني المولد، كما استوطن الكثير من الألمان في إيطاليا؛ وبذلك أنشأ قوة موازية لقوة روح التمرد التي كانت عند اللومبارديين والرومانيين . وقام أوتو بإنشاء الاتحاد الدائم بين ألمانيا وشمال إيطاليا، والذي تحول فيما بعد ، تحت قيادة أوتو الثالث ، إلى اتحاد ضم أربعة شعوب هي : الألمان، الايطاليون ،المغوليون والسلافيون، وقد جمعتهم مع بعضهم البعض فكرة حماية الكنيسة الكاثوليكية التي قادها الإمبراطور نفسه [٥٦].

حاول اوتو في عام 968 استعادة الجزء الجنوبي لايطاليا من اليونانيين، لكنها استعصت عليه عسكرياً ، لذلك لجأ إلى سياسة المصاهرة اذ طلب يد الأميرة تيوفانو Tyovano بنت رومانوس الثاني Romanus II إمبراطور بيزنطة الأسبق لابنه أوتو الثاني على أمل أن يأخذ جنوب إيطاليا، وهي من الممتلكات البيزنطية في إيطاليا ،كهدية زواج الأمير والأميرة، لكن طلبه قوبل بالرفض، في عام 972 عاود الطلب وتمت الموافقة عليه فتزوج أوتو الثاني من الأميرة البيزنطية ،وتحقق بذلك ما كان يحلم به شارلمان من توحيد الإمبراطوريتين بطريق الزواج . لعبت الأميرة البيزنطية دورا كبيرا في تغيير التقاليد الألمانية بالتقاليد البيزنطية

التي جلبتها معها، والتي انتشرت تدريجياً وأثرت في العادات التي كان يمارسها الناس في ألمانيا(٥٧).

توفي اوتو في ٧ أيار ٩٧٣ بعد ان عم السلام جميع أرجاء إمبراطوريته ،مخلفا عرشه لابنه (اوتو الثاني) من زوجته ادهيلد. ترك أوتو الأول لابنه إرثاً قوياً داعماً لمملكته، إلى جانب مهام أثقلت كاهل أوتو الثاني، فقد توسعت التخوم المشرفة على ألمانيا، وانتشرت المسيحية شرقاً وغرباً، حتى أن البوهيميين تحولوا إلى دوقات ألمان، وانتشرت المسيحية في أراضي السلاف، وعقد البولنديون والدنمركيون حلفاً مع ألمانيا،وعززت السطوة الملكية الداخلية في أرجاء الإمبراطورية (٥٨).

ج- أوتو الثاني (Otto II 973-983).

كان أوتو قصير القامة لكنه كان قوي البنية،ذا بشرة حمراء متوردة اللون، كان ذا علم وأدب تلقاهما منذ صغره على يد والدته أدهيلد، إلى جانب زوجته التي كانت تحثه على طلب العلم . تولى أوتو الثاني العرش عام 973، وهو في سن الثامنة عشر، ولما كانت أمه إيطالية وزوجته بيزنطية فقد كان اهتمامه بإيطاليا أكثر مما كان عليه أبوه (٥٩).

حاول أوتو الثاني إقحام الجانب الروحي كمذهب ومبدأ للدولة، فجعل الكنيسة تحت سيطرته الملكية المباشرة بمنحها رقابة دينية ذاتية مستقلة بعيداً عن أي إشراف ملكي، وبذلك استطاع أن يضع حداً لطمع وجشع النبلاء ممن كانوا يعملون على مصادرة ممتلكات وهبات الكنيسة، وفي نفس الوقت استبدل الكونتات بأساقفة ورهبان عملوا كعملاء للسلطة الملكية، وكمصدر أساسي لجبي الضرائب لصالح الخدمات العسكرية . وبذلك اتبع أوتو الثاني سياسة والده في الاستعانة بالأساقفة ورجال الدين من جهة، والعمل على تفتيت ممتلكات كبار الأمراء من جهة أخرى .ووصل التحالف بين الكنيسة والملكية أعلى مراتبه في عهد أوتو الثاني

عنـــدما قـــام بتأسيس أسقفيات ضخمة ومركزية [٦٠].

تجددت حوادث التمرد بين الدوقات خاصة في بافاريا وسوابيا ، نتيجـــة نزاع حدودي سابق بين لودولف بن أوتو الأول، وهنري أخو أوتو الأول،وتجدد هذا النزاع في عهد أبنائهم اذ كان بين أوتو بن لودولف، وهنري بن هنري الأخ الذي كان يسمى (بهنري الخصم)، أما أوتو الثاني فقد حكم لصالح ابن أخيه أوتو. وبذلك حاول (هنري الخصم) أن يثير الكراهيـــة الدينيـــة فـــي صـــدور البافاريين والقيام بتمرد مفتوح، علاوة على ذلك تحالف مع بوليسلو البوهيمي وقضى أوتو الثاني سنوات عديدة من حكمة في محاربة طموحات ابن عمه (هنري الخصم) حتى نجح في إخماد ذلك التمرد، واستغل الفرصة لإضعاف بافاريا عن طريق سلخ بعض أجزائها الشمالية والشرقية عنهـــا. وهكذا انتصر أوتو الثاني ولم يصادف بعد ذلك متاعب كبيرة في ألمانيا [٦١].

أما على مستوى العلاقات الخارجية ، فقد وفق في الحصول على ولاء الدنمركيين والنرويجيين واستطاع المحافظـــة علـــى علاقات جيدة مع ملك بولندا، كما أجبر ملك فرنسا على الاعتراف الدائم بتسليم اللورين للمملكة الألمانية في عام 980، وقد توج ملكاً على الرومان . أما نشاط أوتو الثاني الرئيس فكان في (إيطاليا) التي ظلت ميداناً للفوضى؛ نتيجـــة لأطماع الأمراء من جهة وغارات المسلمين من جهة أخرى[٦٢].

استُدعى اوتو الثاني إلى إيطاليا؛ بسبب تمرد وقع فيهـــا، حيـــث اغتـــصب كرسنتيوس Crescentius أقوى أمراء روما، حكومة روما محاولاً إحياء مجد الإمبراطورية الرومانيـــة القديمة بفرض نفسه قنصلاً على روما، فأمر باغتيال البابا بندكت السادس ثم استبدل به شخصاً آخر من خاصته يسمى بونيفاكس السادس. فعبر أوتو جبال الألب سنة 980، ثم أعفى البابا الجديد مـــن منصبه ثم عين البابا بندكت السابع، وعفا عن كرسنتيوس[٦٣] .

استغل أوتو الثاني فرصة وجوده في إيطاليا وقام بحملة على الأجزاء الجنوبيـــة مـــن إيطاليا وذلك لتحقيق غرضين : الأول طرد المسلمين الذين عبروا من صـــقلية وهـــددوا بنفنتـــو Bnvento، والثاني : تأكيد حقوقه وحقوق زوجته

تيوفانو في جنوب إيطاليا بعد أن عادت الدولة البيزنطية إلى المماطلة في تلك الحقوق . كان اليونانيون في تلك الفترة في حرب متواصلة مع المسلمين لكنهم اتحدوا ضد عدوهم (أوتو الثاني) [٦٤].

حقق أوتو الثاني نصرا في حربه بجنوب إيطاليا (981-982)، فاستولى على كثير من المدن البيزنطية مثل سالرنو Salerno، وباري Bari وتارنتو Taranto. كما أنزل هزيمة بالمسلمين عند قطرون Cotrone، وقُتل في المعركة أبو القاسم أمير صقلية . والتقى مرة أخرى جيش أوتو مع اليونانيين بالقرب من شاطئ البحر بجوار منطقة باسانتيلو، وبشكل مفاجئ قام المسلمون بالهجوم على الإمبراطورية من الخلف ، وما كان منه إلا أن فرناجياً بحياته [٦٥].

كانت تلك الهزيمة الكارثة الأولى من نوعها في تاريخ الإمبراطورية الاوتية ، إذ أنها قضت لمدة قرنين على سيادة الإمبراطورية الغربية في وسط إيطاليا وجنوبها وزادت الكارثة عندما جاءت الأخبار إلى الإمبراطورية بتحرك السلاف على نهر الألب،بعد أن أعلنوا ارتدادهم إلى الوثنية، وذبحوا كثيراً من رجال الكنيسة، ودمروا الكنائس . إلى جانب ذلك أقام الملك البولندي الجديد بوليسلي كروبري حاجزاً بين الألمان وبين مطامعهم في الشرق لمدة قرن كامل من الزمان لذلك عقد الإمبراطور أوتو الثاني مجمعاً في فيرونا Verona عام 983، وقرر المجتمعون التضامن تحت زعامة الإمبراطور؛ لشن حرب ثانية ضد المسلمين،وفي أثناء الاستعدادات لتلك الحرب مات الإمبراطور في ديسمبر عام 983 ثم دفن بكنيسة القديس بطرس في روما [٦٦].

د- أوتو الثالث (Otto III 983-1002).

بعد وفاة اوتو الثاني ، خلفه على الحكم ابنه الطفل (اوتو الثالث) الذي لم يتجاوز الثالثة من عمره ، لذلك واجهت المملكة عدة تمردات تطالب بالعرش الألماني ، ففي الشمال قام السلافيون في منطقة الألب بتمرد تنج عنه تدمير معظم المستعمرات الألمانية التي نُشأت في المنطقة ، فاستولوا على مدن مهمة ، كما بدأ المجريون يتوحدون من جديد تحت قيادة ستيفن الأول Stephen I الذي توجه أوتو الثاني

بيديـــه. أمـــا الدنمارك فقد انشقت عن المسيحية وقام حاكمها سوين فورك بيـــرد (Sweyn Fork Beard)، الذي كان قد عزل والده المسيحي واحيا الفرق الوثنية القديمة، باجتياح المستعمرات الألمانية في الدنمارك وحررها من الألمان [٦٧].

في تلك الأثناء قام هنري خصم أوتو الثاني بطلب الوصـــاية على عرش أوتو الثالث لكونه طفلاً ثم قام بأسره ، نظراً لأن مبدأ الوراثة لم يتحقق قانونياً بعد، غير أن ما كان للأسرة من مكانة ومـــا للحكومة التي أقامتها الأسرة من قوة، أدى إلى اختيار أوتو الثالث ليخلف أباه على الحكم . وبفضل تأييد رجال الدين ، خصوصاً رئيس أساقفة ماينز؛ صارت الوصاية لوالدته تيوفانو ، التي كان لها التأثير القوى في تربيته ، حيث نشأ متأثراً بالروح البيزنطية وتقاليدها التي اســتقاها منهـــا . واستمرت الوصاية عليه ثلاث عشرة سنة تمكنت خلالها تيوفانو من صبغ البلاط الألماني بجانـــب من الحضارة البيزنطية، وزادت من روح النهضة الفنية والأدبية[٦٨] .

قام على تربية أوتو الثالث وتعليمه بعض كبار الأساقفة ، الذين كفلوه بالتعليم الراقـــي، وبثوا فيه روح الحماسة للكنيسة ، وكان من أبرز أولئـــك جربـــرت (Gerbert)، وهـــو أبـــرز المختصين في الكلاسيكيات في زمانه كان جربرت رجلاً فرنسيا ، وهو واحد من أعظـــم علماء عصره ، فقد درس في أسبانيا الإسلامية (الأندلس) ، واستطاع أن يقيم عدة أجهزة ملكية أدخـــل بها الغرب الأوربي لأول مرة في مجال الحسابات الفلكية ، وجربرت هو الذي عرف فيما بعد باسم البابا سيلفستر الثاني (Sylvester II) في عام 999 واسم سلفستر كان يطلق على البابا الذي كان زمن قسطنطين،وهو البابا الذي حول أول إمبراطور روماني (قسطنطين) إلى المسيحية [٦٩].

لقد ألهم جربرت تلميذه اوتو الثالث بإقامة إمبراطورية وبابوية تحكمـــان العـــالم المـــسيحي بمعنى أن يجعل أوتو نفسه ملكاً مقدساً تكون له السيطرة على الشؤون الدينية والـــسياسية معـــاً . فأطلق على نفسه (خادم الرسل) . وأراد أن يجعل روما قاعدة الحكم وحاضرة العالم وعاصمة المملكة بعد أن أصبحت كنيستها أم الكنائس الغربية جميعاً؛ فقام بتشييد قصر إمبراطوري جديد فيها واتخـــذها عاصمة له وقضى أوتو الثالث حكمه غارقاً في أحلام الماضي، بعيداً عن الواقع والحقائق

التي أحاطت به، فأقام معظم أيامه في إيطاليا الأمر الذي أضر بهيبته في ألمانيا، حتـــى فقد مكانتـــه فيها [٧٠].

من جهة أخرى قام أوتو الثالث بملء الوظائف الحكومية والإدارية والكنسية في ألمانيا وإيطاليا بموظفين معظمهم من الألمان؛ مما تسبب بالعداء بينه وبين الإمبراطور البيزنطي،وبينه وبين جميع الإيطاليين من مختلف الطبقات،وعلى الرغم من ذلك فإنه لم ينل تعـــاطف اللـــوردات الألمان معه، فلكونه غريباً في إيطاليـــا، ووحيداً في ألمانيا ، لم ينجز أوتو الكثير لا لنفسه ولا لمملكته. بل إن حركات التمرد التي نتجت عن تصرفاته أصابت من خلفه بمشكلاته [٧١].

مات أوتو الثالث عام 1002 بقرب مدينة روما ، وعمره اثنـــان وعـــشرون عامـــاً فقط ، ثم لحق به سلفستر الثاني بعد سنة . ومجمل القول ، ان اوتو الثالث كان رجلا فطريا حالما ، قضى حكمه غارقا في أحلام الماضي ، بعيدا عن الواقع والحقائق التي أحاطت به التي فقد مكانته فيها عند وفاته [٧٢].

هـــ- هنري الثاني (Henry II 1002-1024).

انتقل الحكم بعد وفاة أوتو الثالث إلى فرع آخر من الأسرة السكسونية، وهو هنري الذي كان دوقاً لبافاريا ، حيث كان هنري ابن عم أوتـــو هـــو الوريـــث الشرعي الوحيد له على العرش[٧٣] .

لم يحظ الملك الجديد بنصيب من قوة أسلافه (الاوتيين) أو نشاطهم ، ذلك أنه لم يتم توليتـــه عن طريق وراثة آبائه ، وإن كان حفيد أوتو الأول، كما أحس بأن الفضل في اختياره يرجـــع إلى أقطاب الدولة الألمانية من كنسيين وعلمانيين، ومن ثم لم يحاول أن يتبع سياســـة اســـتبدادية مثل أسلافه الملوك السكسون الأوائل، بل اختار أن يحكم عن طريق المجالس الاستشارية [٧٤].

تابع هنري سياسة أسلافه في التقرب إلى رجال الدين ، وفي تـــدعيم وتقويـــة ســـيطرته الملكية على الكنيسة؛ فعمل على قمع سيطرة النبلاء على المكاتب الكنسية والدينية محـــرراً التـــاج من الاعتماد على أي نبيل أو لورد من اللوردات ،واستخدم الأساقفة كأداة له في تنفيذ سياسته الدنيوية حتى صاروا ممثلين للسلطة الإمبراطورية في مناطق نفوذهم .كان هنري الثاني الإمبراطور الألماني الوحيد

الذي حاز على لقب قديس، ولم يحصل عليه بسبب ورعه فحسب، ولكن أيضاً لحماسته تجاه إصلاح الكنيسة وكان ذلك بدافع من زوجته التقية كاينغوندي Kaenogondi [٧٥].

وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية فقد أخذت حروبه ضد السلاف والبولنديين جانباً كبيراً من اهتمامه ، فقد أخذ بوليسلاف (Boleslav) حاكم بولندا، بالعمل على توحيد الشعوب السلافية (بوهيميا وهنغاريا) تحت سيطرته ؛ ليجعل منها قوة عظمى تطرد الألمان إلى ما وراء نهر الألب ، فدفع ذلك هنري إلى إشعال فتيل الحرب ، واستطاع ان يبسط سيطرته على بوهيميا وهنغاريا، لكنة هزم أمام بولسلاف، الذي هزم الألمان في سلسلة حملات، وادعى لنفسه استقلال بولندا ونصب نفسه حاكما عليها [٧٦].

إن خطر البولنديين لم يصرف هنري الثاني عن شؤون إيطاليا، اذ أدت وفاة سلفستر الثاني إلى أن تقع البابوية تحت رحمة أمراء روما من ال الكرسكنتي (Crescentius) وتقطعت أوصال ايطاليا فنصب أردوين (Ardoin) حاكم أفرا ivrea نفسه ملكاً لايطاليا بعد أن هزم جيشاً أرسله هنري لملاقاته عام 1008، بينما قام كونتات توسكلم (Tusculm) في روما بمحاولات بسط السيطرة عليها؛ فقام هنري بثلاث حملات عبر شبه الجزيرة الايطالية كما قام بهزيمة أردوين وأحرق مدينة بافيا (Pavia)، ولكنه اضطر للرجوع إلى ألمانيا؛ بسبب القلاقل والاضطرابات التي اندلعت في بوهيميا . وفي عام 1014 وصل هنري إلى روما، ثم توجه البابا بندكت الثامن Benedict VIII إمبراطوراً على روما، وسيطر على شؤون الحكم فيها . وفي عام 1020 زار البابا ألمانيا، لتدشين أسقفية بابنبيرغ (Babenberg) التي قام هنري بإنشائها [٧٧].

قام البابا بندكت الثامن باستدعاء هنري الثامن ما بين عامي 1021-1022؛ لمساندته في تنفيذ المخطط البابوي ضد البيزنطيين في أبوليا (Apulia) على أن يقوم هنري الثاني بحملة شاملة على إيطاليا؛ لإقرار الأوضاع فيها، وفعلاً قام الإمبراطور بحملته سنة 1021 حتى استطاع إخضاع شمال إيطاليا ووسطها، ولكن

مرضاً تفشى بين رجاله في أبوليا؛ فاضطر إلى العودة إلى ألمانيا في العام التالي قبل أن يستقر الموقف تماماً في إيطاليا . لم تكن العلاقة حسنة بين دوقات إيطاليا وهنري، إذ ظهرت بعض القلاقل والشعور بعدم الثقة المتبادل، خاصة أن أولئك الدوقات أجبروا للوقوف بجانب بعض كبار رجال الكنيسة الذين لم تعجبهم حركة الإصلاح داخل الكنيسة (٧٨).

كذلك ظهر العداء بين الأساقفة والنبلاء من جهة، وبين كبار النبلاء وصغارهم من جهة أخرى، وبين المدن وبعضها البعض، أو بينها وبين السلطات الإقطاعية من جهة ثالثة، مما أدى إلى جعل الحال مضطرباً في إيطاليا؛ نتج عنها ظهور حركة معارضة ضد الإمبراطور والبابا، ولكن البابا بندكت الثامن قد توفي سنة 1024 ، ثم لحق به هنري الثاني في العام نفسه وذلك قبل أن تتأجج نار الفتنة ضد الإمبراطور (٧٩).

3- **الأسرة السالية (الفرانكونية 1024-1106).**

أ- **كونراد الثاني** (Conrad II 1024-1039).

عندما توفي هنري الثاني عام 1024 دون وريث للعرش، اختار النبلاء أقرب أقاربه من سلالة العائلة الملكية وهو كونراد الثاني حاكم فرانكونيا وهو من أحفاد اوتو الأول من ناحية الأم، وبذلك فقد افتتح كونراد أول سلالة أباطرة الإمبراطورية وكان الفارق كبيراً بين هنري الثاني وكونراد الثاني، إذ كان كونراد جندياً ومحارباً ورأى لذته الكبرى في حياة المعسكرات لا في المناقشات حول المسائل الدينية؛ لأن الحرب كانت في نظره الوسيلة الوحيدة التي تضمن نفوذه الإمبراطوري كما كان كونراد يتحلى بالحكمة والدبلوماسية الفطنة، وقد ذكره التاريخ بأنه الملك الوحيد من ملوك العصر الوسيط الذي لم يرتكب الكثير من الأخطاء وكان لتلك الصفات فضل في رأب الصدع الذي أصاب الإمبراطورية وتحسين أحوالها بشكل عام (٨٠).

أعلن الايطاليون أثناء مرض هنري الثاني بأن حق توارث الإمبراطورية

الايطالية قد انتهى ، فمنحوا التاج لـ(هوف Hove) ابن الملك روبرت Robert ملك فرنسا، الذي رفض ذلك، بسبب خوفه من إغضاب الإمبراطورية الألمانية، لكن الايطاليين عاودوا الكرة من جديد فمنحوا التاج إلى ابن وليام William دوق اكيوتاني Aquitaine لذلك عبر كونراد جبال الألب عام 1026 وقضى في شمال إيطاليا عاماً كاملاً ثبت فيه نفوذه وأخضع خصومه، ثم قصد روما حيث توج هو وزوجته تاج إيطاليا على يد البابا جون التاسع عشر john xix (٨١).

وأثناء إقامته في روما زاره كل من رودولف الثالث Rudolf III ملك براغندي Burgundy وكانوتي canute ملك إنجلترا، الذي أعجب بهم وزوج ابنته كونهيلد gunhild من هنري ابن الإمبراطور كونراد، وبعد أن استقر السلام في هذا الجزء من إيطاليا منح كونراد المزيد من الأراضي للنورمان Normans؛ شريطة أن يقوموا بحماية الحدود (٨٢).

خلال غياب كونراد في إيطاليا حدث تمرد في سوابيا Swabian، قام به إرنست Ernest الابن الأكبر لزوجة كونراد الثاني (غيسيلا) Gisela من زوجها الأول، لكنه استطاع بسط سيطرته على سوابيا من جديد ثم إعادتها إلى سيطرة القبضة الملكية ثم قام بمنحها إلى ابنه هنري(٨٣) .

أما في الشرق فقد رفض ميسكو Mecso ابن بولسيلاف ملك بولندا الجديد، ان يحلف يمين الولاء للإمبراطورية ، وقام بغزو سكسونيا وتدمير الكثير من القرى وإحراق كنائسها عام 1029، إلا أن كونراد لم يساعده الموقف في إنزال ضربة قاسمة بالبولنديين؛ لذلك انتهى الموقف بعد صراع طويل بالصلح سنة 1031، كما شُغل كونراد الثاني بأمر بوهيميا التي كانت تربطها معه علاقة التبعية للدولة الألمانية، حين ساءت العلاقات بين كونراد ودوق بوهيميا، وظلت الفوضى ضاربة أطنابها في بوهيميا حتى عام 1035 ، كما ساءت العلاقة أيضاً بين ستيفن Stephen ملك هنغاريا وكونراد الثاني؛ مما اضطر كونراد إلى شن هجوم على هنغاريا عام 1030 لكنه لم ينجح في تحقيق النصر؛ لذلك اكتفى بتحصين حدود الإمبراطورية المتاخمة للهنغاريين .واجه كونراد معارضة في اللورين، حيث

رفض أهلها الاعتراف به بعد تتويجـــه ملكـــاً ، لكنه قضى على ذلك التمرد ثم أعاد الاستقرار إلى ألمانيا تحت سيادته [٨٤].

عاد كونراد في عام 1036 إلى شمال إيطاليا؛ لإعادة النظام فيها؛ بسبب اندلاع الحرب الأهلية بين النبلاء، لأنه كان يعتقد انّ قوة نفوذ النبلاء والأمراء كانت تحول دون سيطرته على ايطاليا ، بالإضافة الى ذلك ارتباط الافصال بسادتهم الإقطاعيين، وضعف الروابط التي تربط أولئك الأفصال[٨٥]. وغيرهم مـــن عامـــة الناس بالإمبراطور فاستطاع كونراد تقييد حركة النبلاء بوضع نظام ملكي وظيفي وزاري مؤلف من شخصيات حكومية تقوم على مراقبة الأراضي والاقطاعات، لاسيما التابعة للكنيسة [٨٦].

كان الوزراء من المخلصين جداً لكونراد والموالين بشكل كلي لصالح الـــشأن الملكـــي ، عملوا بكفاءة عالية وأصبحوا بمثابة عنصر مهم جداً في الإدارة الألمانيـــة ،وتعـــاظم شـــأنهم تدريجياً حتى أصبحوا ذوي سلطة فوق سلطة الكونتات والنبلاء لإقطـــاعيين .كذلك ناصـــر كونراد مبدأ توريث ما بأيدي صغار الإقطاعيين من أقطاعات؛ ليهيئ لهم قدراً مـــن الاستقرار والثبات في وجه سادتهم الإقطاعيين الكبار،وكان تطبيق مبدأ الوراثة في الإقطاعات الـــصغيرة يـــدعم مبدأ توريث التاج الإمبراطوري؛ فلجأ كونراد إلى القضاء على كبار الدوقات وسلبهم مناصـــبهم الوراثية،فضلاً عن دعم نفوذ الأساقفة والتمسك بتقليدهم تقليداً اعمى، واستخدامهم كأداة؛ للحـــد من بطش كبار الأمراء [٨٧].

بذلك استطاع كونراد حل قوة الإقطاع في مملكته،ولم يكن لديه أدنى تسامح في تعاظم النبالة التي لا هدف لها إلا السيطرة على الملك، وفي نفس الوقت تجاوز كونراد كل الأعـــراف؛ فقام بتعيين موظفين عاديين ممن هم أدنى منزلة؛ لينصبهم موظفين كباراً تنهـــار مـــع قـــوتهم المدعومة من الملك قوة النبلاء الطاغية، وقد تعاظم هو نفسه كملك بعـــدما وضـــع فرانكونيـــا وبافاريا وسوابيا ولوثرنجيا تحت حكمه الحازم كملك [٨٨].

ويبدو أن ذلك النجاح الذي صادفه كونراد في تطبيق تلك السياسة في ألمانيا وبرجنـــديا دفعه إلى تطبيقها في ايطاليا ، فوجد الإمبراطور مساندين جدداً له مـــن

النبلاء (الفالفاســور) وهم من نبلاء الدرجة الثانية، والذين تعرضوا للاضطهاد على يد السادة الجدد الذين ظهروا أثناء الإحداث في ايطاليا، واصطدم أولئك الأمراء بالأساقفة ، خاصة رئيس أســاقفة مــيلان Milan (هيربرت) Herbert، الذي تمتع بمركز مستقل في أسقفيته، وأخذ يمني نفسه بنفوذ سياسي إلى جانب نفوذه الديني، فرأى الأمراء في تحقيق أطماعه قضاء على سلطانهم؛ فثاروا ضــده؛ ممــا أدى إلى حرب أهلية تطلبت سفر كونراد إلى شمال إيطاليا؛ لتهدئة الموقف (٨٩).

قام كونراد بدعم الأمراء الجدد من الإيطاليين بإعطائهم زمام ملكية الإقطاعــات التــي منحهم إياها بمثابة ضمان ولائهم له وخلافته في إيطاليا ضد كل طارئ، لكن حلفاءه في إيطاليــا كانوا جاهلين بفن تشكيل أقلية نبيلة من بين الجمهور العريض في إيطاليا، وبقــوا بــدون تــأثير يذكر إلى أن اعيدت ممالكهم الجديدة لأصحابها التي حرمهم منها كونراد . مات كونراد في يناير 1039؛ نتيجة حمى أصابته خلال حملة على جنوب إيطاليا عــام ١٠٣٨(٩٠) .

ان وفاة كونراد ، قبل أن يتغلب على مشكلة إيطاليــا، لا تقلــل مــن نجاحه العام في النهوض بالوظيفة الإمبراطورية، ويكفي أنه ثبت نفوذه الإمبراطوري تثبيتاً قويــاً جعل ابنه يعتلي عرش الإمبراطورية من بعده دون أن تعترضه ثورة أو فتنة،وذلك لأول مــرة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية المقدسة(٩١).

ب- هنري الثالث (1039-1056م).

اعتلى عرش المملكة الألمانية في عام 1039 ثم عرش الإمبراطورية الرومانية في عــام 1046،وهو ابن وخليفة الإمبراطور كونراد الثاني . وكان قد توج شريكاً في الملك مع أبيه في عام 1028؛ لذا لم تظهر أي مشاكل أثناء توليه العرش (٩٢) .

اكتسب هنري الخبرة والمهارة في إدارة دفة الحكم عن أبيه . وكان فتى بارعاً وذكياً للغاية وقد طور مهارتــه منــذ صغره؛ مما أهله إلى أن يكون رجل دولة وجندي في آن واحد ، كان هنري يُدعى بــ(الملك الأسود) ، وقد كان الملك الأكثر

تقوى وإحساناً من بين ملوك العصور الوسطى .كان هدفه تحويل ألمانيا إلى حكومة ثيوقراطية (دينية) موحدة [٩٣].

هذا يدل على أن الحكام استخدموا الدين أداة ومحركاً للحكم؛ لأن الدين هو اكبر مؤثر في الناس،وهو الطريقة التي يسيطر بها الحاكم على شعبه؛ لأن الشعب إذا اعتقد بتـــدين حاكمه وإيمانه تصبح ثقته به كبيرة ، وطاعته له سهلة، وذلك من منطلق أن الإيمان الذي يتحلى به الحاكم هو الذي يوجهه في كل ما يقوم به، وهذا دليل كبير علـــى استغلال الـــدين للسيطرة على الحكم.

كانت أهم المشاكل التي واجهت هنري هي مشكلة بولندا وبوهيميا وهنغاريا، فخلال توليـــه الحكم استطاع أن يدمج كل من هنغاريا وبولندا وبوهيميا في مملكته ، لكن لم يدم ذلك طويلا . كانت بوهيميا أول من ثار على هنري حين حاول حاكمها استعادة استقلال بوهيميا، وقد أعانـــه أســـقف براغو على ذلك ؛ طمعاً منه في أن يُرفع إلى درجة رئيس أساقفة؛ حتى يتحقق لبوهيميا الاستقلال السياسي والكنسي[٩٤] .

وبعد صراع عنيف استمر مدة عامين أُجبر الحاكم البوهيمي على الاستسلام ، وكان ذلك في عام 1042،كما أجبر على أداء قسم الإخلاص والوفاء للإمبراطور، أما ابنه الـــذي خلفـــه على العرش فقد قام فور توليه عرش بوهيميا بطرد كل الألمان حتى أمه الألمانية من بوهيميا[٩٥] .

ولم تكن بولندا مصدر خطر واضح على هنري بعـــد أن مزقتهـــا الحـــروب الأهلية، وتعرضت لهجوم من جانب بوهيميا التي كانت في ذلك الوقت أقوى الدول السلافية ، ولـــذلك لـــم يصادف هنري صعوبة كبيرة في إعادة بولندا إلى تبعيتها للإمبراطورية، اما هنغاريا فقد واجه فيها صعوبة كبيرة ، اذ قام الهنغاريون بخلع الملك ثم تعيين ملك وثني جديد اسمه(ابا Aba)على العرش، وحاول ابا أن يحصل على اعتراف هنري به ملكاً ، ولما رفـــض هنـــري؛ أغار على ألمانيا عام 1042 ثم عاد محملاً بالأسلاب[٩٦] .

ثم وقعت معركة بين الملك ابا وهنري الثالث عند مانيفو Menfo عام 1044 كان النصر حليف الإمبراطور، ومن ثم تم إعادة الملك القديم بيتر peter وإعدام ابا. ولكن عاد الهنغاريون عام 1051م للثورة على الملك بيتر وقاموا بانتخاب ملك جديد يدعى اندرياس Andreas؛ مما استدعى هنري للقيام بحملة جديدة على هنغاريا أدت إلى إجبار اندرياس على الاعتراف بالتبعية للإمبراطور وأن يلتزم بالدستور البافاري الذي قسم هنغاريا إلى مقاطعات (٩٧) .

وفيما يتعلق بالسياسة الداخلية فقد قام هنري الثالث باستخدام الإصلاح الكولوني(٩٨) الذي ساعده على إحياء الحياة الروحية لألمانيا ،والحد من الهيمنة الكبيرة لحركة النبالة فيها، وبدعمه للمطالب التي قام عليها رهبان الإصلاح الكولوني؛ استطاع الملك السيطرة على كل المناطق التي كان يسيطر عليها النبلاء ،خاصة تلك التي كانت تعود إلى الكنيسة معيقاً بذلك حركة اللوردات الدائبة لنيل الاستقلال عن الملك، واحتل فرسان الإصلاح الكولوني المكانة الروحية في المملكة؛ مما جعل الملك ورجال الدين يخشونهم لقوتهم وسطوتهم (٩٩). وذلك ما حصل بالفعل ، فقد أرغم الملك هنري الثالث البابا غريغوري الخامس Gregoey V والذي توجه بابا بنفسه على التخلي عن منصبه عام 1046؛ مما أثار غضب الأساقفة والرهبان الذين أوصلتهم حركة الإصلاح الكولوني إلى نيل استقلالية تامة عن الملك، والادعاء بأحقية البابا بعدم الاستجابة لمطالبه ، وكانت تلك التي أقحمت الباباوات والأباطرة في صراع مرير، وقد دفع ذلك الإصلاح ، البابا إلى مكانة لم يستطع أي إمبراطور بعدها سحبها منه، وبالرغم من أن هنري الثالث حكم نطاقاً عريضاً من المناطق إلا أن سياسته قد نَفّرت الكثير من النبلاء وقوضت آماله في توسيع إمبراطوريته (١٠٠).

وفيما يتعلق بموقف هنري الثالث من البابوية، فقد أظهر حماساً بالغاً ؛ لانتشال البابوية مما وقعت فيه من الفوضى من جديد. لقد كان الحدث العظيم الذي أربك المنطقة كلها في تلك الفترة هو انشقاق الكنيسة على نفسها بين العديد من الباباوات المعاصرين لفترة حكم هنري الثالث وخاصة في إيطاليا (١٠١).

لذلك هدفت الحركة الإصلاحية منذ البداية إلى تخليص الكنيسة من كل الفوضى والارتباك والانقسام والفساد، وكان ما رمى إليه دعاة تلك الحركة هو مقاومة اعتبار كبار الكنسيين الألمان مـــوظفين ملكيـــين، اختارهم الملك وقلدهم شارات وظائفهم، ورغم ترحيب هنري بممثلي حركة الإصلاح الكولوني، ومساندتهم في إصلاح الأديرة؛ فانه لم يدرك بأن ذلك الإصلاح قصد به أساساً نظامه الـــسياسي، ولم يدرك ما كانت تنطوي عليه سياسته من خطر (١٠١).

كانت سياسة هنري الثالث الدينية على جانب كبير من الأهمية والتناقض، ذلك أنه عمل على إصلاح الكنيسة من بيع الوظائف الدينية، ومن المفاسد الكنسية الأخـــرى، ولكنه حرص في الوقت نفسه على السيطرة عليها وعلى البابوية دون أن يدري أن تلك السيطرة من الأمراض الخطيرة التي تشكو منها الكنيسة . نستنتج مما سبق ان هنري الثالث كان يعلم أهمية الكنيسة لدعم الإمبراطور ونظامه مادياً وعـــسكرياً ، وبـــذلك قـــام بدعم الكنيسة ومساندتها إصلاح الأمور التي لا تمس سلطته ونفوذه، وتغاضى عـــن هـــدف الإصلاح في التخلص من سلطة الباباوات، وأصر على حقه في تعيين الباباوات. ولعـــل قبـــول الكنيسة بذلك جاء من منطلق وجود مصالح متبادلة بين الطرفين .ومن ناحية أخرى ، عانى الملك في سنوات حكمه الأخيرة من اضطرابات وحركات تمرد في أكثر من نصف الإمبراطورية .

كان دوقات سكسوني واللورين هم مـــن أبـــدوا المقاومـــة الأشرس لهنري ؛ وذلك بسبب انتزاع هنري لحقوق الدوقات بجنوب سكسونيا،الذين ظلوا زمناً طويلاً مستقلين عن سلطة الملك ، فقد فرض الوصاية الملكية على الأراضي التابعة للفلاحين الأحرار وأَولى مسؤوليتها لدوقات من رجاله .كما قام بتقسيم اللورين بين أبناء الدوق الـــسابق لتلك المنطقة؛ مما أدى إلى قيام أحد أبنائه بتمرد ضخم انضم إلى ذلك التمرد كونتات هولنـــدا والفلاندرز(١٠٢).

وفي عام 1056م هاجمت قبائل اللوتيزي Allotizi السلافية ألمانيا لكنهـــا لـــم تـــستطع اقتحام الجدار الدفاعي الذي أقامه في وجههم حاكم سكسوني، وخلال نفس

العام ضـــرب ألمانيا زلزال ضخم كان له وقعه الشديد على الإمبراطورية كلها، اذ حلـــت المجاعـــات والكـــوارث تباعاً على ألمانيا، ومات الإمبراطور نفسه بعدما أصيب بالمرض، ولفـــظ أنفاســـه فـــي منطقـــة بوتفيلد Botfeld بالقرب من جبال هارز Harz، وقـــد تـــرك الإمبراطورية وديعـــة لـــدى الإمبراطورة أجنس Agnes وابنه هنري الذي كان حينها في الخامسة من عمره. وبـــذلك فـــإن المسؤولية الكاملة حينها وقعت على كاهل امرأة وطفل لم يتجاوز الخامسة من عمره [١٠٣].

ج- هنري الرابع (1056-1106م)

حكم هنري الرابع خمسين عاماً، ويرجع ذلك لتوليه الحكم وهو صغير، فقد توج في عهد أبيـــه وكان في الرابعة من عمره، وعندما مات والده كان لا يتجاوز الخامسة؛ فخـــضعت المملكـــة لحكم أوصياء عديدين، وتولى الباباوية وقتذاك أجرأ المصلحين وأكثرهم حماساً، وهـــو هلدبراند Hildebrand، الذي صار يعرف فيما بعد بالبابا جريجوري السابع Gregory VII وقبل أن يبلغ هنـــري الرابع الخامسة عشر من عمره كان الإقطاع في ألمانيا قد استولى تقريباً على الإرادة الملكية، فلم يكـــن الملك سوى تمثال حجري لملك أو خادم في أسقفية، وقد قاتل الأســـقف (جريجـــوري السابع) -والذي كان المستشار الأول لهنري الرابع حتى عام 1066م- ضد حركة النبلاء الإقطاعيـــة خاصة في سكسوني، لكن تغلب النبلاء الذين عملوا على نهب أبرشـــيته التـــي كان يترأسها [١٠٤].

كانت إمبراطورية هنري الرابع الجديدة تقوم على أسس اجتماعية لها أثرها في صراعه مـــع حركة النبلاء والكنيسة، وفيما يتعلق بشؤون المدن والممالك التي كانت لأولئك سلطة مطلقة فيها، كان هنري الرابع يبحث عن الحداثة وتأسيس مملكة ألمانية قائمة على أسس جديدة بعيدة عـــن التعقيـــدات الجامدة للكنيسة وتسلط النبلاء، فقد كان ثائراً على الدستور القديم الذي يحكم المملكة [١٠٥].

اختار هنري الرابع ، مدينة جوسلر goslar بجبال هارز بجنوب سكسونيا لتكون عاصمة له، وشيد بها قصراً ضخماً . وقام بإنشاء العديد من الحصون والقلاع ؛ لتأمين الأراضي التابعة للملكية الألمانية، لكن بالرغم من ذلك لم يكن تام الوثوق من التأمينات التي قام بها؛ مما دفعه لبناء المزيد منها، وتحويل البلاط الملكي بكامله مع الأساقفة والرهبان إلى موظفين إداريين يخدمون مصالحه الملكية (١٠٦). ولما كان هنري الرابع يرجو ألا يرى أي سيد في المملكة؛ فكر في حرمان وتجريد السادة الإقطاعيين من اقتطاعتهم ونفوذهم . بدأ بالسادة السكسون، اذ ارادها مملكة قائمة على نظام إداري راق. وبالرغم من أنه الملك الأقل حظاً ، فانه يعتبر الموحي الأول لنهضة أسس جديدة في عالم الحكم والإدارة الملكية ، وكان بوسع هنري الرابع أن ينجح في مشروعاته لإقامة ملكية ألمانية مركزية قوية، لو لم يصطدم بالبابا جريجوري السابع ، فمنذ أن كان هنري الرابع شاباً يافعاً إلى أن أصبح ملكاً كان يبدي روحاً ملكية انسيابية رائعة توحي بأنه الأجدر لتلك المكانة بعد أبيه هنري الثالث، وقد كان رجلاً يفضل الموت على الهزيمة (١٠٧).

وعندما استقر كل شيء لهنري الرابع، قام البابا بضربه من الخلف مدمراً كل شيء صنعه هنري الرابع.وكان البابا جريجوري السابع ذا شخصية لها مكانتها واحترامها، وبعد توليه المنصب البابوي كشف البابا عن نواياه الحقيقية بكلمات ملتهبة قالها في خطبة أمام جمع من الناس "ملعون من يعيد سيفه إلى غمده مملوءً بالدم" ، قاصداً هنري الرابع وملك فرنسا، وقاصداً أيضاً إعلان سلطة البابوية على الدولة وعلى الكنيسة. وقد طلب من هنري أن يخلع كل مستشاري التاج والعودة إلى البابوية في كل الأمور فاعترض هنري الرابع على تلك القرارات، وهو الذي كان يرى والده بالأمس بعين البابا نفسه، يجد نفسه لا يستطيع أن يعين أي رجل دين،واستمسك هنري الرابع بحقه في تعيين الأساقفة ورجال الدين مستنداً إلى ما سارت عليه ألمانيا دون غيرها من الحكام منذ فترة بعيدة (١٠٨).

وانتهى الأمر بالصدام المسلح بين الطرفين، ولم يصل الطرفان إلى نتيجة حاسمة فاستعان هنري الرابع بالطرق الدبلوماسية وفشل فيها أيضا، وخلال تلك المرحلة كان موقف هنري بين الرضوخ والتمرد إلى أن نجح هنري في إقصاء البابا عن عرشه فعلاً بعد مجمع بركسن Brixen الذي عقد في عام 1080، ونصب مكانه كلمنت clement III الثالث الذي كان من أشد أعداء جريجوري السابع (١٠٩).

كان الصراع بين الإمبراطورية والبابوية في تلك المرحلة شديداً للغاية، لم ينته بعزل جورجي السابع بل استمر حتى وفاته، ثم مع خلفائه من بعده ، فقد قام الباباوات الثلاثة الذين خلفوا جورجي بحرمان هنري الرابع كنسيا(١١٠).

ورغم جهود هنري الرابع في ضبط زمام الأمور لم يستطع أن يحل كل مشاكله في إيطاليا، كما بدأت المتاعب تشغله في ألمانيا ، فقد انتشر الشقاق والنزاع فيها ونجح الأمراء الثائرون في ضم ولدي هنري وهما هنري الخامس وكونراد إليهم، وظل الصراع قائماً بين الأبناء وأبيهم حتى تنازل هنري الرابع عن العرش لابنه هنري الخامس عام 1105، ثم ما لبث هنري الرابع أن مات في العام التالي(١١١).

ونجم عن الحروب الداخلية العنيفة التي دارت أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر، أن ظهرت ألمانيا أخرى، بالغة الاختلاف عن ألمانيا السابقة، فقد عمت النظم الإقطاعية البلاد وأضحى صغار السادة أتباعاً للأمراء، وحرص الأمراء أن يجعلوا مناصبهم وأملاكهم إقطاعيات وراثية، وعلى الرغم من أن ألمانيا ظلت نحو قرن محافظة على قوتها، فإن ظهور الأمراء دمر المملكة الألمانية(١١٢).

الخلاصة

نستنتج مما تقدم :

* أن أوضاع ألمانيا خلال فترة البحث لم تكن مستقرة تماما ، وإنما تخللها صراعات ،سواء داخلية أم خارجية كما حكمتها عدة اسر بسبب خلو العرش من ولي عهد يعود إلى الأسرة الملكية .

* رغم أن العصر عصر إقطاع وسيطرة رجال الدين والنبلاء على السلطة ،لكن هذا لم يمنع حدوث صراع بين النبلاء ورجال الدين من اجل السيطرة على السلطة والحصول على الامتيازات التي كانت شائعة في عصر الإقطاع من جمع الضرائب والرشاوى .

* استغلال رجال الدين والكنيسة من اجل الوصول إلى السلطة والحيازة على امتيازاتها الإقطاعية وأموالها .

* كثرة الحروب سواء الداخلية بين السادة الإقطاعيين وبين الأمراء ورجال الدين من جهة أخرى . وخارجية بين مملكة ألمانيا ، وملوك وأمراء الممالك المجاورة لها وكانت الحرب سجال بينهم ، وتمردات على السلطة الملكية الألمانية .

* ويمكن أن نعدّ هذه الفترة ، من تاريخ ألمانيا ، نموذجاً للنظام الإقطاعي في العصور الوسطى . الذي كان الدين فيه موجها نحو السلطة ، على الرغم مما بدا من صراع بين الكنيسة والإقطاعيين الكبار ، لان كليهما يرى في الدين (وهو المذهب الكاثوليكي) مبررا له في السيطرة ، هذا فضلا عما كان يدور من صراع بين الإمارات الإقطاعية أيضا .

الهوامش :

١- ألعريني ، السيد الباز ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، بيروت ١٩٩٠ ، ص ٤١٨ .

٢- كانتور ، نورمان ف .، العصور الوسطى الباكرة (القرن الثالث / القرن التاسع الميلادي) ترجمة قاسم عبده قاسم ، القاهرة ، ١٩٩٣، ص ٣٥٦ .

٣- حافظ ، حمدي ، توحيد ألمانيا ، القاهرة ، ب ت ، ص ٣ .

٤- النائب ، إحسان عبد الهادي سلمان ، المسالة الألمانية من وحدتها إلى إعادة توحيدها ، السليمانية ، ٢٠١٣ ، ص ١١ .

٥- عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، بيروت ١٩٩٠ ، ص ص ٢٤٦-٢٤٧ .

6- Lamonte, John ,The World Of The Middle Ages :Areorientation Medieval History , France , 1949, p.170 .

٧- حاطوم ، نور الدين ، تاريخ العصر الوسيط في أوربا ، ج١ ، دمشق ، ١٩٨٢ ، ص ٤٤٧ .

8-Robinson , James Harvey , An Introduction to The History of Western Europe , Posten ,1903 , 2008,p. 96.

٩- حاطوم ، المصدر السابق ، ص ٤٤٧ .

10- Robinson , op. cit ., p 104 .

11- Cop, Jason p., A Brief History of Germany , New York ,2011, P.30 .

12- Ibid ., p 31 .

13-Bury ,J.B.,& Others . Cambridge Medieval History , Vol. III, New York ,1922 ,P. 69 .

١٤ – كانتور ، المصدر السابق ، ص ٣٥٨ .

15- Bury & Others, Op. Cit ., P. 70.

16- Flurry , Stephen , History of Germany , U.S.A., 1997,P.69.

17- Lamonte, Op. Cit ., P. 117.

18- Thomson, James Westfall ,feudal Germany, U.S.A., 1928 ,P 26 .

١٩- عاشور ، المصدر السابق ، ص ٢٨٥ .

٢٠ – لقب بالصياد ، لان اختياره للملك تم اثناء انشغاله برحلة صيد لذلك لقب في التاريخ بالصياد . عاشور، المصدر السابق ، ص ٢٨٦ .

٢١- ديفز ، ه. و.، أوربا في العصور الوسطى ، ترجمة عبد الحميد محمود ، الإسكندرية ، ١٩٥٨ ، ص ٧٢ .

22- Lamonte, Op. Cit ., P. 172.

23- Flurry, Op. Cit ., P. 84.

٢٤- طه ، جاد ، ألمانيا إلى أين المصير ، القاهرة ١٩٩٠ ، ص ١٣ ؛ حاطوم ، ص ٤٥٥ .

٢٥- إحسان ، المصدر السابق ، ص ١١ .

26-Barraclough , G., The Medieval Time Western Europe , U.S.A., 1987, P. 27 .

٢٧- عاشور ، المصدر السابق ، ص ٢٩٩ .

28- Barraclough, Op. Cit ., P. 28.

29 - Cop, Op. Cit ., P.32- 33.

٣٠- حاطوم ، المصدر السابق ، ص ٤٥٧ .

٣١- طه ، المصدر السابق ص ١٣ .

٣٢- ديفز ، المصدر السابق ، ص ص ٧٤-٧٥ .

33- Lamonte, Op. Cit ., P. 173.

34- Bury & Others, Op. Cit ., p. 79.

35- Ibid ., p. 186 .

36- Cop, Op. Cit ., P.65.

٣٧- طه ، المصدر السابق ص ١٣ .

38- Robinson, Op. Cit ., P.152.

39- Barraclough, Op. Cit ., P. 82.

٤٠- هسلر ، س زورن ، أوربا في العصور الوسطى ، ترجمة محمد فتحي الشاعر ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ١٤٩ .

41- Bury & Others, Op. Cit ., P. 197.

٤٢- ألعريني ، المصدر السابق ، ص ص ٤٢٤-٤٢٦ .

٤٣- المصدر نفسه ، ص ٤٢٦ .

٤٤- فشر ، ه .ا.ل .تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد ألباز ألعريني ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص ص ١٣٩-١٤٠ .

٤٥- طه ، المصدر السابق ص ١٤ .

٤٦ – كين ، موريس ، حضارة أوربا في العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، القاهرة ١٩٩٤ ، ص ٤٤ .

47- Strayer ,Joseph, Western Europe In Middle Ages ,New York , 1955 , P. 67 .

٤٨- هسلر ، المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

٤٩-المصدر نفسه ، ص ١٥٥ .

٥٠- عبد الحميد ، رأفت ، الفكر السياسي الأوربي في العصور الوسطى ، القاهرة ، ٢٠٠٢ ، ص ١٣٠ .

٥١- بروي ، ادوارد ، تاريخ الحضارات العام : القرون الوسطى ، ترجمة ، يوسف اسعد داغر وفريد م. داغر ، ط٢ ،بيرون ١٩٨٦ ، ص ١٨٤ .

٥٢- عبد الحميد ، المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

٥٣- ديفز ، المصدر السابق ، ص ص ٧٥ ، ألعريني ، المصدر السابق ، ص ٣٤١.

٥٤- عاشور،المصدر السابق ، ص ٣٠٣ .

55- Logan , F .Donald ,A History Of Church In The Middle Ages , London , 2002 , P.79 .

٥٦- هسلر ، المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

٥٧ – دورانت ، ول ، قصة الحضارة : عصر الإيمان ، ترجمة ، م ٤ ،ج٣ ، ص ٣٢٩ .

58- Reuter , Timothy , Germany in The Early Middle Ages 800-1056 , Singapore ,1991 .P. 174 .

59- Logan , op. cit ., p.88.

٦٠ – عاشور المصدر السابق ، ص ٣١٠ .

61- Lamonte, Op. Cit ., P. 179.

62- عمران ، محمود سعيد ، حضارة أوربا في العصور الوسطى ، بيروت ، ١٩٩١ ، ص ١٩٥ .

63- Bury & Others, Op. Cit .,P. 208 .

٦٤- ديفز ، المصدر السابق ، ص ٧١ .

65- Bury & Others, Op. Cit ., P. 169.

٦٦- كانتور ، المصدر السابق ، ص ٣٦٣ .

67- Hoeh, Christian, A History of Germany in the Middle Ages ,London ,1962 , p.33 .

68- Bury & Others, Op. Cit ., P. 171.

69- Cop, Op. Cit ., P.34.

٧٠- ديفز ، المصدر السابق ، ص ص ٩٤٥- ٩٤٦ .

٧١- بيشوب ، موريس ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، ترجمة علي السيد علي ، القاهرة ، ٢٠٠٥ ، ص ٥٣ ؛ ألعريني ، المصدر السابق ، ص ٤٣٨ .

٧٢- كين ، المصدر السابق ،ص ٤٥ .

73- Reuter , Op. Cit ., P. 187 .

74- Strayer, Op. Cit .,P 77 .

75- Lamonte, Op. Cit ., P. 123.

76- Henderson ,Ernest , History of Germany in The Middle Ages , London , 1894 , P. 159 .

77- Ibid , P. 163 .

78- Bury & Others, Op. Cit ., PP.251-253

79- Ibid , p. 253.

٨٠ – عاشور ، المصدر السابق ، ص ٣١٧ .

81- Lamonte, Op. Cit ., P. 179.

82- Henderson, Op. Cit ., PP.168-169 .

83- Ibid , P.169.

٨٤- عاشور ، المصدر السابق ، ص ص ٣١٨ -٣١٩ .

٨٥- الافصال : وهم مجموعة من الأفراد يعيشون بالقرية المملوكة للسيد ويتبعونه تبعية تامة ، مقابل تقديمه حصصا من الأراضي ، مقابل ما يقدمونه للسيد من الخدمات في أرضة : للمزيد من التفاصيل انظر :

86- Lamonte, Op. Cit ., P. 179.

87- Hoeh, Op. Cit ., P. 153.

88- Maehl , William Harvey , Germany in Western Civilization , U.S.A.1979, P. 49 .

٨٩- عاشور ، المصدر السابق ، ص ٣٢١ .

90- Hoeh, Op. Cit ., P. 172.

٩١- عاشور ، المصدر السابق ، ص ٣٢١ .

92- Lamonte, Op. Cit ., P. 180.

93- Maehl, Op. Cit ., P.49.

94- Bury & Others, Op. Cit ., PP. 277-278.

95- Maehl, Op. Cit ., P.50.

٩٦- هسلر ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

97- Reuter , Op. Cit ., p. 201.

٩٨- الإصلاح الكالوني :

٩٩- ألعريني ، المصدر السابق ، ص ٤٤١ .

100- Maehl, Op. Cit ., P.50.

101- Henderson, Op. Cit ., P. 180.

102- Hoeh, Op. Cit ., P. 188; Reuter , Op. Cit ., P. 285.

103- Bury & Others, Op. Cit ., PP. 280.

104- Logan , Op. Cit , P, 67.

105- Bury & Others, Op. Cit ., PP. 285.

١٠٦- ألعريني ، المصدر السابق ، ص ٤٤٢ .

١٠٧ – المصدر نفسه ، ص ٤٤٣ .

108- Maehl, Op. Cit ., P.52.

١٠٩- عمران ، المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

١١٠- هسلر ، المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

١١١- الشيخ ،محمد محمد مرسي، النظم والحضارة الأوربية في العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ص ص ٣٣٩-٣٤٠ .

١١٢- ألعريني ، المصدر السابق ، ص ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .